116 - وإذ قال ا يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون ا قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب .

- 117 - ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا ا ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد .

- 118 - إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم .

هذا أيضا مما يخاطب ا به عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام قائلا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون ا { يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون ا } وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد هكذا قاله قتادة وغيره واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى : { هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم } وقال السدي : هذا الخطاب والجواب في الدنيا وصوبه ابن جرير قال : وكان ذلك حين رفعه إلى السماء . واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين (أحدهما) : أن الكلام بلفظ المضي (والثاني) قوله : { إن تعذبهم } { وإن تغفر لهم } وهذان الدليلان فيهما نظر لأن كثيرا من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضي ليدل على الوقوع والثبوت . ومعنى قوله : { إن تعذبهم فإنهم عبادك } الآية . التبري منهم ورد المشيئة فيهم إلى ا وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه كما في نظائر ذلك من الآيات والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر - وا أعلم - أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوتبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة . وقد روي بذلك حديث مرفوع رررواه الحافظ ابن عساكر عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : " إذا كان يوم القيامة دعي بالأنبياء وأممهم ثم يدعى بعيسى فيذكره ا نعمته عليه فيقر بها فيقول { يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك } الآية ثم يقول : { أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون ا } فينكر أن يكون قال ذلك فيؤتى بالنصارى فيسألون فيقولون : نعم هو أمرنا بذلك قال : فيطول شعر عيسى عليه السلام فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعرة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدي ا D مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار " (رواه الحافظ ابن عساكر وقال ابن كثير : هذا حديث غريب عزيز) .

وقوله تعالى : { سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق } هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل كما قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا ابن ابي عمر حدثنا سفيان عن

عمرو عن طاووس عن أبي هريرة قال : يلقي عيسى حجته ولقاه ا تعالى في قوله : { وإذ قال ا يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون ا } قال أبو هريرة عن النبي صلى ا عليه وسلّم فلقاه ا { سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق } إلى آخر الآية وقد رواه الثوري عن معمر عن ابن طاووس عن طاووس بنحوه . وقوله : { إن كنت قلته فقد علمته } أي إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب فإنه لا يخفى عليك شيء فما قلته ولا أردته في نفسي لا أضمرته ولهذا قال : { تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ... ما قلت لهم إلا ما أمرتني به } بإبلاغه { أن اعبدوا ا ربي وربكم } أي ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتين بإبلاغه { أن اعبدوا ا ربي وربكم } أي هذا هو الذي قلت لهم . وقوله : { وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم } أي كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم { فلما توفيتين كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد } .

قال أبو داود الطيالسي عن ابن عباس قال : قام فينا رسول ا صلى ا عليه وسلّم بموعظة فقال : " أيها الناس إنكم محشورون إلى ا D حفاة عراة غرلا { كما بدأنا أول خلق نعيده } وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابي فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح { وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ... إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم } فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم " (رواه البخاري في التفسير عند هذه الآية : { إن تعذبهم فإنهم عبادك } .

وقوله تعالى : { إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم } هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى ا D فإنه الفعال لما يشاء الذي لا يسال عما يفعل وهم يسألون ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على ا وعلى رسوله وجعلوا ندا وصاحبة وولدا تعالى ا عما يقولون علوا كبيرا وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب وقد ورد في الحديث أن النبي صلى ا عليه وسلّم قام بها ليلة حتى الصباح يرددها قال الإمام أحمد عن أبي ذر Bه قال : صلى النبي صلى ا عليه وسلّم ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها { إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم } فلما أصبح قلت : يا رسول ا ما زلت تقرأ هذه الآية حتى اصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال : " إني سالت ربي D الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء ا لمن لا يشرك با شيئا " وقال ابن ابي حاتم عن عبد ا بن عمرو بن العاص أن النبي صلى ا عليه وسلّم تلا قول عيسى { إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم } فرفع يديه فقال : " اللهم

أمتي " وبكى فقال ا : يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فاسأله ما يبكيه فأتاه جبريل فساله فأخبره رسول ا صلى ا عليه وسلّم بما قال وهو أعلم فقال ا : يا جبريل اذهب إلى محمد فقال : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك . وقال الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان قال غاب عنا رسول ا صلى ا عليه وسلّم يوما فلم يخرج حتى ظننا أن لن يخرج فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت فيها فلما رفع رأسه قال : " إن ربي D استشارني في أمتي ماذا أفعل بهم ؟ فقلت : ما شئت يا رب هم خلقك وعبادك فاستشارني الثانية فقلت له : كذلك فقال لي : لا أخزيك في أمتك يا محمد وبشرني أن أول من يدخل الجنة من أمتي معي سبعون ألفا مع كل ألف سبعون ألفا ليس عليهم حسبا ثم أرسل إلي فقال : ادع تجب وسل تعط فقلت لرسوله : أو معطي ربي سؤلي ؟ فقال : ما ارسلني إليك إلا ليعطيك ولقد أعطاني ربي - ولا فخر - وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر . وأنا أمشي حيا صحيحا وأعطاني أن لا تجوع أمتي ولا تغلب وأعطاني الكوثر وهو نهر في الجنة يسيل في حوضي وأعطاني العز والنصر والرعب يسعى بين يدي أمتي شهرا وأعطاني أني أول الأنبياء يدخل الجنة وطيب لي ولأمتي الغنيمة وأحل لنا كثيرا مما شدد على من قبلنا ولم يجعل علينا في الدين من حرج (الحديث وإن كان ضعيف السند ففي أحاديث الشفاعة ما يؤيده ويؤكده)